التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الاحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

ما أحوج بنى الانسان كلما قطعوا شوطاً فى طريق هذه الحياة ، أن يديروا وجوههم لحظة عن الأفق الذى يستقبلون ، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التى تلتمع على جوانبها ، والتى ستبقى هناك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل ، ما أحوج الانسانية أن تهتدى فى سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك السبيل ؛ وما أحرى قافلتها كلما آدها العبء ، أو أعياها السير ، أو اعترضتها العقبات ، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من سيرهم مجتمعة سيرة البشرية فى هذا الوجود

وها نحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم « لنكولن » رئيس الولايات المتحدة ، أحد أبناء الانسانية الغر الميامين وأحد أفذاذها البواسل . ولا لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها ، بل إذا تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ، متخذين قبسنا فى هذا الحديث من وراء المحيط . لا لوم علينا فى ذلك ، فأبناء الانسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود صاروا للعالم كله ، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التى أخرجت بطل حديثنا وما فصلها فى تاريخ الوجود ؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة ، فكان بروزها السياسى شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادى ، إذ يقولون إن أمريكا ، أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء فى حركة من حركات هذا الكوكب ! وما كان بروزها السياسى في الحق إلا حركة من حركات الشعوب فى هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم ؛ حركة لم تكن متوقعة من قبل ، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصلة إلى ما وصلت إليه !

سمع الناس فى أوربا قبل أن تنبعث الرجفة الكبرى من فرنسا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط . سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجيلان ويتهلل وجهها الأبلج فى تلك الربوع الفسيحة التى وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الإيمان واليقين ، سلاح « جان دارك » الخالد فى وجه الطغيان المربد العبوس ؛ سمعوا عن مراكب من الشاى تقذف حمولتها فى البحر وتأكلها النيران ، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقى هاتفة صاخبة ، وعن جنود تحشد خفافا وثقالا ، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالا شديدا

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة ، تسمع فى ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الإنسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية «واشنجطون» . وأخيراً علموا أن انجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت فى عام ١٧٨٣ م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً ؛ ورأى العالم فى ذلك دليلاً جديداً على أن الإيمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار !

ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة

ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مملقة فراضت أحرارها على خشونة العيش، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل في سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلي في انجلترا. لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعا من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشي النبات، يشقونها ويفلحونها، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الانسانية في أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد!

وكان هؤلاء في أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب في جوانب الغابات، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع، ويفعلون ما كان يفعل آباء الانسانية الأولون، يتعرضون لشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من «الهنود الحمر» ويتناثرون هنا وهناك في مساحات هائلة يمشون في مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شيء من عوامل الخوف

في هذه البيئة الساذجة وفي كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب، فتح إبراهام لنكولن عينيه على هـذا الوجود في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير عام سنة ١٨٠٩ م!

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، بل خرج إبراهام لنكولن أحد الفلائل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ. وما كان ذلك ليعيبه، بل إنه لمن دواعي الفخار إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهى أو يفتخر. وهو لعمري مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التي خرج منها؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها، ومن مفاسد المدنية وأوضارها، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها، فخلص له معدنه الحر وبقى نقياً لم تعلق به الأوشاب؛ وصار في جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحي! وتمثلت فيه البشرية في سذاجتها وكمالها وفي ضعفها وقوتها وفي إشفاقها وعلوها؛ وسار الناس يلمحون في سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله! وكم للفقر من يد على العظماء! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أماثل ومصابيح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة!

ذلك هو لنكولن الناشىء في الشوك من أيامه، وتلك هي صفاته في جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتي من حديثه. وكأنك تقرأ سجاياه في أسارير وجهه؛ وتحس فيها ما تعوده في حياته من البأساء والضراء. فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى في رأسه الأشعث، ولمحت زكانة نفسه في جبهته العريضة العالية المجعدة، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته في عينيه الوديعتين المتسائلتين، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته في أنفه الغليظ الأشم. ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مضض الحوادث، وطالعتك من هاتيك الملامح في جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذي يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل!

فتح الوليد عينيه على الوجود في لوح أقيم من الكتل الخشبية في مقاطعة كنتوكي بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً، فنما كما ينمو وحشي النبات في ذلك الإقليم! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها، وتدثر بجلودها، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع في مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير. ولما بدأ يدرك الأشياء وجد عالمه في ذلك الكوخ الذي لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار في مثلها والذي لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشيه وغليظه، من جلود مجففة إلى آنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التي كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة في عينه الغريرة، تلك هي بندقية أبيه التي كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة، فهي لذلك تختفي في النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية

ما يصل إليه خيال الطفل من هذا الوجود . وحسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح فى هذا المضطرب وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التى تكبره بمام ؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهما التهاماً وأن يصغى إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً ؛ وكان يعجب كلما رأي أباه مقبلا من بين الأشجار ، بندقيته على كتفه ومعوله فى منطقته ، وفى يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه فى فرحة ظاهرة وتهيء الطعام للأب وللأسرة جميعاً

فى هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة ، فهو يعيش كما كان يطلب « روسو » فى أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوى وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحى نفسه الصغيرة وتستشف ما فى هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشمر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسى ؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان ؟ أليس يرى الكدح فى سبيل العيش ؟ وحسبه فى سنه أن يرى ذلك وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذ انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدى إلى إحدى المدن القريبة . وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه ، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه

وفى السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة ، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل ، فيساعد ذلك الأب الذى يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه ، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة ، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه ، لا يحفل بتعب فى تلك المساعدة التى يباهى بها أخته ، وإن كانت هى أيضاً تقوم بنصيبها فى مساعدة أمها ؛ ولكن هل كانت « سارا » تستطيع أن تسوى الخشب وتجره وترتبه ؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل « أيب[1] » الصغير ؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا فى أيام الآحاد ، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع فى شغف ولذة لما تلقى أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل . ولقد أحدثت تلك الحكايات فى نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك فى جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوى قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدهما الأنباء والأقاصيص ، وكم كان معجباً بتلك الخالة التى تكتب وتقرأ وتحبذ أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته ، وأين نشأت ، وممن انحدرت ؟ فسمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه ، وماذا كان يتوقع الغلام ؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر ؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا ؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته ؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وماتقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب ، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا . وأنى له ذلك وهو ابن الأحراج والأدغال ! ؟ . وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة ، أنه بينما كان يساعد أباه — جد « أيب » — فى الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصابت ذلك الأب فخر صريعاً ، وجرى الأخوان نحو الكوخ ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه ، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التى أحضرها من الكوخ مسرعاً ، إلى رأس ذلك الهندى فأرداه قتيلاً

فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من الخطر ، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب جده ، وهاله موت جده على تلك الصورة ، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد ، أو قل كان

(١) Abe اسم أطلق على الغلام على سبيل التدليل وصار يعرف به بين الناس حتى انتخب رئيساً للولايات المتحدة